

التراث الخطي في دار الكتب الظاهرية بدمشق

وأثره في إغناء تراجم الأعلام من خلال السماعات

كان للقرن التاسع عشر الميلادي في دمشق أثره البارز من الناحية الثقافية والعلمية، شهد وجود علماء متميزين برعوا في جوانب تخصصية عُرفوا بها، كما أولوا الكتاب أهمية بالغة وخدموه، لشعورهم بقيمته في ازدهار الحضارة.

وقد عَدَّ رئيسُ مجمع اللغة العربية محمد كرد علي هذا القرن بداية نهضة بلاد الشام عمومًا ودمشق خصوصًا^(١)، وقد شهد هذا القرن قيام دار الكتب الظاهرية التي سعى لإنشائها هؤلاء العلماء الذين أشرنا إليهم، لذا يمكن أن نقول إن هذا القرن وضع دمشق على عتبة نهوض شهدته في أيامها المقبلة بعد، ولو أن الأوضاع السياسية كانت مضطربة، وكان الجو العام في المدينة في اتجاه، والتطور العلمي والثقافي كان في اتجاه آخر.

وتأتي أهمية هذا البحث في بيان قيمة المكتبة الظاهرية وملابسات قيامها، والكشف عن قيمة السماعات في مخطوطاتها، والاستفادة منها في طريقة جديدة لكتابة التراجم تعطي ألقًا جديدًا فيها لم يكن من قبل.

تزخر دار الكتب الظاهرية بمخطوطات فريدة قيِّمة جُمعت من أماكن عديدة في دمشق مما نجا من الإهمال والسرقات، وبفضل جهود علماء مخلصين على رأسهم الشيخ طاهر الجزائري، وأعضاء الجمعية الخيرية من أمثال الشيخ علاء الدين عابدين والشيخ

(١) «خطط الشام» لمحمد كرد علي.

محمود حمزاوي والشيخ سليم البخاري^(١)، وهم الذين بينوا للوالي مدحت باشا وفرة ما تحويه مرافق الوقف من خطيات تتعرض للاندثار، واقترحوا عليه أن يأمر بتخصيص مكان لحفظها من الضياع، فكتب إلى السلطان عبد الحميد يقول: لما كانت الكتب الموقوفة والمشروطة لاستفادة العموم قد حُصرت بأيدي المتولين، وحُرِم الناس من مطالعتها، فكان من اللازم جمعها وجعلها في مكان مخصوص ليكون الانتفاع بها عامًا.

وبذلك استطاع الوالي الحصول على قرار بجمعها في تربة الملك الظاهر في شباط (١٢٩٥) شرقية نظرًا لمناسبتها لتلك الغاية^(٢)، وحين عُزل مدحت باشا عن الولاية وخلفه حمدي باشا حوّل الجمعية الخيرية إلى مجلس معارف برئاسة مفتي الشام العلامة محمود حمزة، فاشترك مع الشيخ علاء الدين عابدين والشيخ سليم العطار والشيخ محمد المنيني في إثارة موضوع الكتب الوقفية، وأفهموه ضرورة جمعها في تربة الملك الظاهر بمخزانة مخصوصة تحت متناول القراء والباحثين، فوافق الوالي، وأصدر أمره بما طلبوا، على أن تكون تحت إشراف أهل العلم المعنيين، وذلك في ١٥ / شباط / ١٢٩٥ شرقية^(٣).

لم يكن جمع هذه الخطيات بالأمر الهين، إذ وقف في وجه العلماء مُتَوَلِّو الأوقاف ومن استحل سرقته، حتى إنهم هددوا الشيخ طاهر بالقتل وأذوه، فما ثناه ذلك عن مقصده.

لم يكن جمع المخطوطات عملاً هينًا، وإنما دل على أن أهل العلم على بصيرة بما كانت تتضمن المرافق الوقفية، ولولا هذه الجهود لخسرت دمشق تلك البقية المهمة من الخطيات، فكانت بداية الجمع من عشر مكنتات على النحو الآتي:

(١) انظر تراجمهم في كتاب «تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري».

(٢) انظر تراجمهم في كتاب «تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري».

(٣) «المدرسة الظاهرية» لأسماء الحمصي.



١ - كتب المدرسة العمرية التي أسسها في صالحية دمشق أبو عمر المقدسي محمد ابن أحمد بن قدامة -٦٠٧هـ، وكانت أشهر الخزائن من قبل تلاعب أيدي المختلسين^(١)، وتمتاز خطياتها بتضمنها خطوط مؤلفيها، وعليها سماعاتهم، وهي نادرة لا مثيل لها، وكثير منها مخطوطات وحيدة، فنُقِلَ منها إلى الظاهرية (٦٦٠) مخطوطة^(٢).

٢ - خزانة مدرسة عبد الله باشا العظم في مدخل سوق البزوريين، وقفها سنة (١١٩٠هـ)، ونقل منها (٤٦١) مخطوط^(٣).

٣ - مكتبة مدرسة اسماعيل باشا وكان فيها كتب وقفها ابنه الوالي أسعد باشا العظم بعد سنة (١١٦٥هـ)، أخلي منها إلى الظاهرية (٣٧٥) خطية، بعد أن رفض الناظر تسليمها، ورفع منها أنفس المخطوطات^(٤).

٤ - خطيات المدرسة السليمانية، وقفها فيها الملا عثمان الكردي، وجد فيها (٣١٢) مخطوطة^(٥).

(١) سرق منها أحد النجديين خمسة أحمال من الكتب وفر بها. «منادمة الأطلال» (٢٤٤) لأن بها كتب الحنابلة مذهب أهل نجد، هذا غير الإهمال وبيع المخطوطات من قبل المتولين.

(٢) كان كثير منها مواد لرسائل الدراسات العليا. وانظر كتاب «المدرسة العمرية» لمحمد مطيع الحافظ.

(٣) مدرسة عبد الله باشا العظم انظر «منادمة الأطلال» (٢٧٠).

(٤) مدرسة إسماعيا باشا من المدارس العثمانية، وقفها المذكور سنة (١١٤١هـ) في سوق الخياطين، «خطط الشام» (٢٦٩).

(٥).



٥ - مخطوطات المدرسة السليمانية الجوانية في جادة السليمانية^(١)، كان فيها كثير من المخطوطات بقي ما لا يزيد عن (١٣٠) مخطوطة كان وقفها سليمان باشا العظم (١١٩٦هـ).

٦ - مخطوطات المدرسة المرادية في حارة الورد المؤدية إلى سوق ساروجة، وكان أنشأها الشيخ مراد بن علي الحنفي النقشبندي سنة (١١٠٨هـ) عرفت من قبل باسم أزهر دمشق، وقد سُرق أكثر موجوداتها، ولم يبق منها سوى (٢٦٠) مخطوطة^(٢).

٧ - خطيات الخانقاه السمسياطية^(٣)، وعثر فيها على (٨١) مخطوطة.

٨ - خزانة كتب بيت الخطابة بالجامع الأموي وحوت على (٧٣) مخطوطة.

٩ - مكتبة الأوقاف عثر فيها على مخطوطات آلت إليها من خزائن متفرقة وضمت (٦٤) مخطوطة^(٤).

١٠ - موجودات جامع السياغوشية لم يكن فيها سوى (١١) مخطوطة^(٥).

هذا وقد قُدِّمَ للظاهرية عدد من مخطوطات أخرى ضمت إلى ما ذكر حتى بلغت ما آل إليها سنة (١٨٨٠م-١٢٩٨هـ) (٢٤٠٠) مخطوطة غير الكتب المطبوعة^(٦)، ووضع للظاهرية

(١) المدرسة السليمانية الجوانية غرب خان الجمرک. «خطط الشام» (٢٧٠).

(٢) «خطط الشام» (٢٦٧).

(٣) السمسياطية: أشهر خوانق دمشق، بناها علي بن محمد السمسياطي سنة (٥٣هـ) بجوار باب جامع دمشق الغربي، ووقفها على فقراء الصوفية. «خطط الشام» (٣٩٨).

(٤) «المدرسة الظاهرية» لأسماء الحمصي.

(٥) جامع السياغوشية نسبة إلى سياغوش باشا الذي أمر ببنائه داخل باب الجابية عام (٩٩٥هـ). «خطط الشام» (٣٦١).

(٦) «المدرسة الظاهرية» لأسماء الحمصي.



نظام، وعين لها مشرفون، وموظفون اثنين حتى افتتحت رسمياً للقراء والباحثين سنة (١٨٧٨م-١٢٩٦هـ)^(١).

ومن أقدم خطيات الظاهرية:

- مسائل الإمام أحمد بن حنبل تأليف ابن حنبل كُتِب سنة (٢٦٦هـ).
 - سنن النسائي للإمام أحمد بن سعيد النسائي كُتِب سنة (٣٥٥هـ).
 - معاني الشعر لسعيد بن هارون كتب قبل سنة (٤١٠هـ).
 - الملاحن لابن دريد الأزدي كتب سنة (٤١٠هـ).
 - أسماء الضعفاء من رواية الحديث لمحمد بن عمر العقيلي كتب سنة (٤٤٤هـ).
 - المطر والسحاب لابن دريد الأزدي كتب سنة (٤٤٥هـ).
 - رفع اليدين في الصلاة للإمام البخاري كتب سنة (٤٤٥هـ).
 - المؤتلف والمختلف لعبد الغني بن سعيد الأزدي كتب سنة (٤٨٥هـ).
 - غريب الحديث للقاسم بن ثابت السرقسطي كتب سنة (٤٩٩هـ).
- كما تضم مخطوطاتها أشعاراً بخطوط مؤلفيها، كـ بعض أعمال ابن عساكر وأسرته، والضياء المقدسي وأسرته، وابن تيمية، وابن حجر، والذهبي، ويوسف ابن عبد الهادي، والسبكي، والنابلسي، وغيرهم كثير.

أقول: تمثل الظاهرية من غير شك اهتمام علماء دمشق زمن تأسيسها بالكتاب الذي يعرفون قيمته وأهميته، وخوفهم على ضياع ما بقي من خطيات بدمشق.

(١) المصدر السابق.



ومن مزايا هذه الخطيات تنوعها في العلوم والموضوعات، واتصافها بالضبط والإتقان، ذلك لأنها قرئت على الشيوخ وأثبتت عليها سماعات كثيرة على العلماء مهمورة بخطوطهم، وخصوصًا المجاميع، وفيها ما لا يقل عن مئتي مجموع من النوادر، في المجموع الواحد رسائل عديدة، وكلها من الفرائد.

وأقول أيضًا: وانطلاقًا من تميز المخطوطات في الظاهرية بسماعاتها نقف عندها لمعرفة البواعث إليها.

ظهرت السماعات مع نشأة المدارس في بغداد ودمشق، ولعل أول مدرسة منها قامت في نيسابور معتمدة على أوقاف كثيرة تشجيعًا للأساتذة والطلبة.

وكانت غاية السماع إثبات قراءة طالب معين في ذيل الكتاب الذي قرأه على شيخه المذكور اسمه ممعا يعطي الكتاب قيمته العلمية وصحة ما فيه، إضافة إلى أن السماع إنما هو إجازة من الشيخ الذي يثبت عليه خطه.

ثم تطور الأمر وأطلق على السماع اسم الطباقي، أي إن القراءة أتت على المخطوطة من طبقة إثر طبقة، حيث يثبت سماع إثره سماع آخر أو سماعات... وتلك عملية توثيق للكتاب ومؤلفه وللطالب، ولا بد في السماع أن يتضمن المعلومات الآتية:

١- اسم الشيخ المسموع عليه الكتاب وكنيته ولقبه ونسبته.

٢- عنوان الكتاب ومؤلفه.

٣- اسم القارئ وكنيته.. (وقد يكون الشيخ هو القارئ).

٤- أسماء السامعين للكتاب.. وتحديد أعمارهم إن كانوا صغارًا. (والجدير بالذكر فإن العادة أن تذكر أسماء الأطفال الحاضرين قراءة الكتاب إن كانوا فوق سن الرابعة،



فيطلق على الواحد منهم اسم السامع، فإن كانوا دون ذلك يقال لأحدهم: حاضر.. فيكتب المقيد بعد ذكر اسمه وقد حضر فلان في الأولى أو الثانية أو الثالثة.. أي من عمره).

٥- عدد المجالس التي قرئ فيها الكتاب إن كانت في أكثر من جلسة.

٦- اسم المكان: ويراد به البلدة أو القرية، وقد يذكر ما يتعلق بالمكان دون ذلك كبيت الشيخ أو المسجد الفلاني أو غيره.

٧- التاريخ: ويثبت بالشهر واليوم والسنة ولا يذكر أنها بالهجرية للعرف.

٨- وإن لك يكن الشيخ المسموع هو المؤلف ذكر سنده إليه.

٩- يختم السماع بحمد الله، والصلاة والسلام على رسوله ﷺ، واسم الكاتب.

١٠- يوثق الشيخ السماع أخيرًا إن لم يكن هو كاتب السماع بعبارة «صح ذلك وثبت» ثم يذكر التاريخ.

وبناء على كل ما تقدم يمكن للباحث المهتم بالتراجم والرجال أن يجمع هذه السماعات ويفرزها على أسماء الشيوخ، وأسماء الكتب، وعلى كل عنصر- من عناصر السماع.. ليخرج بترجمة موثقة نادرة، وهي طريقة جديدة.

ويقوم الباحث من أجل ترجمة عالم ما بتنسيق السماعات الخاصة به بعد دراستها ليصل إلى:

- معرفة شيوخه.
- أسماء الكتب التي قرأها أو سمعها على الشيوخ.
- أسانيده إلى مؤلفي الكتب.



- أسماء رفاقه في طلب العلم سواء في بلده أم في رحلاته.
- تاريخ رحلاته وخط سيره فيها.
- أسماء المدن والقرى التي دخلها وتلقى فيها عن شيوخها.
- عناوين الكتب المتداولة في زمنه.
- تاريخ قراءة كل كتاب باليوم والشهر والسنة.
- مراحل حياته.

كان النموذج الذي يقدم على هذه الطريقة ما صنعه شخصياً في ترجمة الحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي (٦٤٣هـ) وسميت العمل «التنويه والتبيين في سيرة الحافظ ضياء الدين» واتبعت هذه الطريقة كذلك في كثير من مؤلفاتي عن المدرسة النورية وغيرها.. وخرجت فيها بمجديد مفيد فيما أزرع.

